حول فلسفة نيتشه

رســـالة نبي الوثنية !

للأســـتاذ زكريا إبراهيم

اعتقد نيتشه فى نفسه أن عليه رسالة لا بد أن يبلغها للانسانية ، فلم يكن له بد من أن يفتق لنفسه نبياً يتكلم على لسانه . وقد وضع نيتشه رسالته هذه على لسان نبيه زرادشت ، فجاءت وحياً ليس له نظير فى عالم الفلسفة . والواقع أن كتاب « هكذا قال زرادشت » هو طُرفة فنية رائعة لا نجد لها مثيلاً فى الأدب الألمانى الحديث ، بل لعلها تكون أروع ما عرفه النثر الأدبى فى ألمانيا كلها . ولكن الذى يعنينا من أمر هذا الكتاب هو أن نعرف السبب الذى من أجله اختار نيتشه « زرادشت » لكى يكون المعبر عن آرائه . وقد تكفل نيتشه نفسه بالجواب عن هذه المسألة فقال : « إن أحداً من الناس لم يسائلنى — وكان الظن بهم أن يسألوا — عن المعنى الذى أقصده حينما أُجرى اسم « زرادشت » على لسانى ، أنا « اللا أخلاقى » (immoraliste) الأول ؛ فإن ما كان يميز هذا الفيلسوف من غيره ، هو على وجه التحقيق ، تعارضه المطلق مع اللا أخلاق . والواقع أن زرادشت كان أول من وجد فى الصراع بين الخير والشر ، المحور الأساسى الذى تدور حوله كل الأشياء ، فهو أول من حول الأخلاق إلى مجال الميتافيزيقا ، وجعل منها قوة أو علة أو غاية فى ذاتها . ولكن هذا عينه هو السبب فى اختيارى له : فإن زرادشت هو الذى استحدث ذلك الخطأ الجسيم الذى هو « الأخلاق » moralité ، وإذن فإن من الواجب أن يكون هو أيضاً أول من يفطن إلى ذلك الخطأ ؛ لا لأن اختباره للمسألة كان أطول وأعظم من اختبار غيره من المفكرين (فإن التاريخ مُفعم بالأدلة التجريبية والبراهين العملية التى تنقض النظرية المزعومة عن وجود نظام أخلاقى للأشياء ordre moral des choses) ، بل لأن زرادشت كان أكثر أمانة وتوخياً للصدق من غيره من المفكرين . »

ولكن ما هو هذا الوحى الذى نزل على زرادشت من سماء إلهه نيتشه ؟ لقد جاء هذا النبي الجديد بديانة معارضة للمسيحية ، مناهضة للا خلاق ؛ وهذه الديانة مُودَعة فى تضاعيف شعر فنى

ووجد حلاً غير مرضى بمعيشته مع أخته التى كان سيصير مركزها إذا تزوج مشكلة صعبة . وكانت فى الحقيقة ، تتكدر إذا بين لها رغبته فى التعرف إلى نساء أخريات . وكانت أحلامه بموتها إيضاحاً لرغبته اللاشعورية التى تحتم موتها حالاً ، وبهذا يحل مشكلته هذه . وكان هذا غير مقبول لدى عقله الواعى وضميره اللذين عوضا على الرغبة باهتمام مضطرب قلق لصحة أخته ...

إنه كان يميل إلى ج كثيراً ، ولأن السيدة ب شجعته صارت المرأتان مشتركتين فى (اللاشعورية) . ورغبته الخائبة للارضاء الطبيعى البحت كان محققاً بـ د التى أصبحت على هذا النمط مشتركة مع كل من المرأتين ، وكان (ا) متقابلاً فى شعوره الشخصى بالضمة ، بقدر ما كان قلقاً ، وساعة أخته الذهبية كانت هدية منه ، وتعبر عن العاطفة التى أراد أن يعطيها لامرأة أخرى . فكانت أحلامه لذلك انعكاساً مستتراً لفشله الشخصى

وبعد . فإن باختبار القارىء لأحلامه بإخلاص ، كما فعلنا فى هذا المقال ، ربما يكون قادراً على شرح ما يبدو له منها غامضاً وفى الوقت ذاته يدرس عن نفسه الشىء الكثير

هل أحلامك إلهامية ؟ لقد قال الدكتور الفريد أدلر Dr. Alfred Adler إنها فى بعض الدرجات ربما تكون كذلك . ليس لأى سبب خفى ، ولكن لأنها ربما تدل على محاولات تجريبية عند حل المشكلة التى تتأتى

وقال أيضاً إن شخصاً ربما يركن إلى التنعم بأحلام السعادة والنجاح . غير أن هذا لا يتفق الآن للرجل الجرىء الذى لا تبعد حقيقته عن خياله ، فتكون أحلامه أقل تعبيراً عما يعتجنه وجدانه .

(الاسكندرية) عبد العزيز عيادو

ساحر يرن فى السمع كما ترن الآيات القصار . فلم يَصُغْ نيتشه إذن أفكاره فى ألفاظ وعبارات ، بل صاغها فى لمح ولمحات . وهذه الأفكار كثيراً ما يعذُب وقعها فى السمع ، بغض النظر عن المعانى التى تنطوى عليها ، فهى أفكار لا تنحصر قيمتها فى ذاتها ، بل فى صورتها الشعرية الرائعة التى ينساب سحرها فى النفس خفياً لا تكاد تحق به المعانى ! وليس من شك فى أن هذه الصورة الشعرية ذات الموسيقى العذبة ، كان من شأنها أن تصرف النظار عن التأمل فى المعنى الذى تخبئه الألفاظ ، ومن هنا فإن أقوال زرادشت كثيراً ما تتخطى الأسماع إلى القلوب ، فتعمل فى النفس عما لا تعمله الأفكار والمعانى . وهل يمكن للفلسفة أن تؤثر فى النفس كما يؤثر الشعر ؟

وليس أسلوب نيتشه وحده هو المجازى الرمزى ، بل إن فكره أيضاً رمزى كذلك . فلسنا نجد لدى زرادشت تحديدات دقيقة أو براهين ثابتة ، بل نجد خليطاً من الآراء والأقوال ، يمكن أن نجد فيها لكل شىء جواباً بالسلب وجواباً بالإيجاب ، ويمكن أن نجد فيها أيضاً مجالاً للاختيار بين عشرة أو أكثر من التأويلات المختلفة . وهذا كله من شأنه أن يجعل المؤلف فى منجى من الاعتراضات التى يمكن أن يوجهها إليه الناقدون ، لأن الناقد لن يجد لديه شيئاً ثابتاً يمكن أن يأخذه عليه — . ومثل هذا الأسلوب فى الكتابة ، أليس هو من قبيل التخلى عن الفلسفة الحقيقية ، على حساب هوًى ميتافيزيقى خاص ، أو نزعة توكيدية dogmatisme شخصية استحالت إلى إيمان ثابت أو عقيدة راسخة ؟ إذن فما أصدق نيتشه نفسه إذ يقول على لسان نبيه زرادشت : « تسألونى لماذا ؟ أنا لست ممن يُسألون حين يعملون لماذا ؟ » . وهل كان نيتشه فيلسوفاً يأخذ بالعقل ويخضع للمنطق ، حتى يقدّم حجة على ما يقول ، أو برهاناً على ما يدعى ؟ ... إن زرادشت نبى ملهم ، فليس له إلا أن يملى على الناس أحكامه ، وليس على هؤلاء الناس إلا أن يرهفوا له السمع !

أما الرسالة الجديدة التى جاء بها هذا النبى الملهم ، فهى فى جوهرها ردّ فعل عنيف ضدّ الأخلاق المسيحية المثالية ، والمذاهب العاطفية المتطرّفة ، مما نجده فى العصر الحديث لدى أصحاب « ديانة الألم الإنسانى religion de la souffrance humaine » . وقد استعان نيتشه فى سبيل القضاء على هذه الأخلاق ، بكثير من آثار ذلك النقد الألمانى العنيف للديانات والفلسفات . ولكن هذا النقد قد اتخذ عنده صورة التجديفات العنيفة واللعنات المتواصلة ، فجاءت حملته على الديانات ضرباً من الإنكار الهائج الذى تشيع فيه سَوْرة الجنون . بَيْد أن هذا الإنكار تعقبه تأكيدات مفعمة بالحماسة والحمية ، بقدر ما هى خالية من كل برهنة أو إثبات . وهذه التأكيدات نفسها قد لقيت نجاحاً كبيراً ، لهذا السبب عينه وهو انعدام البراهين منها : فإن انعدام البرهنة كان من شأنه أن يخلع على تلك التوكيدات الإنكارية (إن صح هذا التعبير) قوة ووجاهة ؛ ومن ثَمّ فقد سيطرت على الناس وأثرت فى عقولهم تأثيراً كبيراً . فهؤلاء الذين يُؤخذون بسحر العبارة وموسيقية اللفظ ، قد وجدوا فى عبارات نيتشه التوكيدية الحاسمة ، لذة كبرى لا عهد لهم بها فى كتب الفلاسفة . وهؤلاء الذين يولعون بالغريب الشاذ ، ويعشقون النادر غير المألوف ، قد وجدوا فى كتب نيتشه ما لا حصر له من الغرائب التى تستثير الإعجاب وتبعث على الدهشة . ولكن هذا وحده لم يكن السبب الوحيد فى إقبال كثير من الناس على قراءة كتب نيتشه (التى أخذت تنتشر وتعاد طبعها) بل إن ثمة سبباً آخر أعمق من ذلك ، وهو أن نيتشه قد نادى بمذهب فردى أرستقراطى ، أراد به أن يهدم كل أخلاق وكل دين . فالروح الإنكارية التى كانت سائدة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، قد وجدت فى نيتشه تعبيراً قوياً عن الحاجة التى تشعر بها . وهل كانت رسالة زرادشت فى الحقيقة ، إلا دعوة صريحة مؤدّاها « العودة إلى الوثنية الأرستقراطية » : paganisme aristocratique ؟ وهل كان نيتشه إلا « بَيكال الوثنية » كما قال هانلوك إليس بحق ؟

زكريا ابراهيم